

فلسفة الذات في الخطاب الروائي المعاصر

رواية الزاوية المنسية لـ "اليامين بن تومي" أنموذجا

*The Philosophy of the Self in the Contemporary Novelist Discourse
(The Forgotten Corner Novel - Azzwiya El-Manssia) of "Al-Yameen Ben
Toumi" as a model*نادية لوحش¹، نور الدين بلاز²¹ مخبر الممارسات الثقافية التعليمية و التعليمية في الجزائر، المركز الجامعي عبد الله مرسل، تيبازة،

(الجزائر)، louahche.nadia@cu-tipaza

² جامعة علي لونيبي، البلدية، (الجزائر)، Bal-nrd@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/10/27 تاريخ القبول: 2024/03/20 تاريخ النشر: 2024/04/24

ملخص: تعدّ الرواية المعمار الفني ومصبّ انفتاح القراءات ومنتجا ثقافيا مختلف الرؤى، والذات الكاتبة ترسخ لثقافتها، وتوجّه خطابها لهوية تمثلها. وهي بكونها الهمّ المعرفي منذ الفلسفات القديمة، أخذت أبعادا أخرى ورمزية في الإبداع الأدبي، فتروم بفلسفتها في النصّ، إبراز المنظور الفني والجمالي والفكري والإيديولوجي، وتطرح مواضيع الدّين والسياسة والجنس والكون كمعالم معرفية. اعتمدت دراستنا منهج النقد الثقافي هادفة إلى استنباط ثانيا الخطاب الروائي، وتلخيص معالم الذاتيّة وكيّونتها الفنيّة والفكرية وتشكلاتها مع الذات المتعايشة معها في بيئتها الثقافية، كما استنتجت سعي الذات في الخطاب الروائي إلى تكريس ممارساتها الجمالية والفكرية والإيديولوجية، وتزيد الذات القارئة وعيا باستنباط المفاهيم وبناء فهم جديد.

كلمات مفتاحية: فلسفة الذات، النسق، الثقافة، الخطاب الروائي، النص.

Abstract: The novel is an architectural artistic work and a source of open interpretations, serving as a diverse cultural product. The author directs its discourse towards a representative identity. As a cognitive concern since ancient philosophies, it has taken on extra symbolic dimensions in literary creativity. Through its philosophy, it highlights artistic, aesthetic, intellectual, and ideological perspectives and addresses themes of religion, politics, sexuality, and the universe as epistemic features. Our study adopts a cultural critique approach aiming at extracting the nuances of the novelistic discourse. It summarizes the characteristics of the author's self, its artistic and intellectual essence, and its formations with other identities coexisting within its cultural environment. It concludes that the self aims to cement its aesthetic, intellectual, and ideological practices, enhance the reader's self-awareness and promote the extraction of new concepts and construct a new understanding.

Keywords: Philosophy of Self; Structure; Culture; Narrative Discourse; Text.

المؤلف المرسل*

1. مقدمة:

يعدّ النَّصُّ ظاهرة ثقافية وحدثاً تواصلية وبنية دلالية ونظاماً من العلامات، هذا الجهاز العلاماتي منتج من منتج ذات تصوغ ما يتعلّق بإرادتها بواسطة اللّغة للمجتمع التاريخي ضمن بنية ثقافية اجتماعية تاريخية محددة. فأصبح النَّصُّ خاصّة الرّوائي ظاهرة ثقافية يحتفى بها كونها مصبّ الأفكار والإيديولوجيات، يبحث فيها المؤلّف عن توجهاته وانتمائه الفكري والقارئ عن هوية وعالم يعبر عنه ليسكنه، فالذات هي المنشأ والمأل يسعى المؤلّف /القارئ فيها للبحث والفهم ومنه تبين لنا منهج الدّراسة وهو منهج النقد الثقافي والدّراسة الثقافية النسقية للبحث والتّحليل ولاتّساع الموضوع تبتد لنا هذه الإشكاليات:

1- كيف تشكّلت فلسفة الذات في الخطاب الرّوائي المعاصر؟

2- ماهي الإرهاصات المعرفية لفلسفة الذات؟

3- ما العلاقة بين الذات كفلسفة قائمة بذاتها والغير /الأخر في اختلاف الثقافات؟

4- كيف وظّف مفهوم التصوف الذات ودلالاتها الفلسفية؟

5- كيف هي تمثّلات الذات فلسفياً في الخطاب الرّوائي "الزاوية المنسية"؟

تكتب الذات ذاتيتها في الخطاب الأدبي والرّوائي خاصّة وعيها الاجتماعي والأخلاقي والثقافي لتحقيق التواصل مع شركائها في الثقافة، فعناصر الذات كنظام يبحث عن تسجيل الذات الواعية المفكّرة عبر الكفاءة الإنجازية للّغة، ضمن الخطاب الرّوائي المكثف بالأنساق في قيمه الأنسقية وحمولته الفكرية والفنّية والأيديولوجية، ووعيا يثير لوعي آخر ويستكنه ذوات قرائية ويستبطنها ثقافياً.

2. إرهاصات مصطلح فلسفة الذات:

يعتبر مصطلح الذات من المصطلحات المهمّة لدى الفلاسفة والنقّاد والعلماء، وتدرس غالباً بمعنى الرّوح وفي مواضع أخرى بمعنى الأنا والشّخصية. وفي معاني أخرى تساوي الفكر أو العقل. يتأرجح هذا المصطلح من مفهوم ديني إلى فلسفي وإلى مفهوم نفسي حالياً حسب اختلاف الحقول المعرفية.¹

1.1 معنى فلسفي: تقصد الذات العارفة، ويقابلها الموضوع الثّميّ المعروف، الذي يوجه إليه النشاط المعرفي.²

2.1 معنى ميتافيزيقي: يقصد به حقيقة الوجود وهي ما تقوم بذاتها وتقابل العرض، وعند الكلام عن الله عزّ وجلّ يقال: الذات الإلهية.³

فالذات في الفكر الفلسفي موضوع له إرهابات تعود إلى ما قبل الفلسفة اليونانية، في الفلسفات الشرقية القديمة الصينية، والإيرانية، والهندية، والمصرية والعراقية وغيرها وأخذت معان العقل والفكر والأنا والروح والشعور بالذات. فاعتبر أفلاطون الذات هي النفس كجوهر مستقل عن الجسم، وهي أسى من الجسم وخالدة وتطمح بالرجوع إلى عالمها الأول الذي هبطت منه وهو عالم المثل.⁴ أوضحت الذات ببعدها الفلسفي مسارا آخر، فالذات في الفلسفة الحديثة ذات أبعاد إبستمولوجية معرفية، أما هنا فهي ذات معان وجودية واقعية، شخصية، هي الإنسان بأكمله روحا، عقلا، عاطفة وجسدا.

3. الذات والآخر:

يقول "سورين كيركجارد" (1855-1813): "ينبغي لي أن أسعى وراء الحقيقة ليست بالحقيقة العامة، بل هي حقيقتي أنا... ينبغي لي أن أجد الفكرة التي من أجلها أحيأ وأموت... أنني أستطيع أن أصرف نظري عن كل شيء حتى عن الموت والجحيم، ولكنني لا أستطيع أن أصرفه عن ذاتي، وحتى لو كنت في النوم".⁵ والذات عند كل من "كارل ياسبرز" (1980-1733) و"جبريل مارسيل" (1973-1889) أخذت تتفاعل مع الآخر، فلا سبيل أمام الإنسان إلى تحقيق ذاته إلا بالاتحاد والتآزر مع غيره من الناس، والحرية لا تعاش إلا في عالم الحريات، فمعرفة الذات لا يمكن أن تكون عن طريق الاستغراق في التأمل بل من خلال اتصالها ومشاركتها بالآخرين.⁶

ويأتي "جون بول سارتر" (1980-1905) ليحطّم هذا التآزر والتكاثف بين الآخرين بإعلانه في إحدى رواياته قوله: "أن الآخرين هم الجحيم"، ولكنّه على الرّغم من هذا أعطى للذات أهمية كبيرة وأعطاه مكانة متميزة وأكد حريتها، فالإنسان عند "سارتر" مجبر على الحرية، لأنّ الحرية تعبر عن الشعور بالمسؤولية.⁷

4. التصوّف وفلسفة الذات:

اعتقد بعض المتصوّفة والفلاسفة بأن مقرّ الذات في المثل الأعلى للإنسان، فأنصار وحدة الوجود يؤمنون أنّ مقاصد حياة الإنسان تتجلى في الحياة المطلقة أو (أنا) المطلق، كما تفنى القطرة في البحر.⁸ بل تمثل الذات بتمثّل ذات الخالق بحثا عن عالمها المثالي وروحانياتها مع الوجود الأسى لها، فتبني الذات نفسها وتكرّس في ذاتها ومن أجل ذاتها ثقافيا.

فلسفة الذات كرفض ومعارضة شديدة لكلّ الفلسفات السلبية السابقة، إنّ الذات بفلسفتها تسعى لاحتواء الحياة الفردية، فلا تملك الحياة وجودا خارجيا آخر، فالحياة بدقّة عناصرها وتفصيلها تكمن في شخص أو شيء أو فرد، والذات الإلهية أو الخالق فرد عليّ أعلى لا مثيل له. فالهدف الجوهرى للإنسان هو إثبات ذاته دينيا وأخلاقيا وفكريا لا نفيها، فتنمو الذات وتطمح لتحقيق ذاتيتها وبصيرورة وحدتها فالحياة تستمرّ في نشاط دائم ومتجدّد تخلق العراقل والمطالب والقيم والمثل الجديدة، ما يوسع من بوتقة الذات نحو انفتاح ثقافي وإيديولوجي وجمالي "إستيطيقي"، هنا تسعى الذات بالكفاح والصراع مع الآخر المقابل لها، وتتميز قوى الذات المبطنّة في صدامها مع تلك العقبات.

هذا البراديغم المتوتر "الذات" في قوته وحيويته تدفع بالفرد نحو الكمال، أنّها قوة العشق التي تحول قطرة الماء إلى درّة ثمينة. يقول محمد إقبال للإنسان: ((أخرج النعمة التي في قرار قطرة يا غافلا عن نفسك، أخلصها من نعمات غيرك)).⁹

تحمل الذاتية الإنسانية في كيانها قوّة الإبداع وروحا سامية تسعى للسمو في علاقة وجودية مع قيم كونية بحثا عن هويتها.

5. تمثّلات الذات في الخطاب الروائي:

يبرز الروائي "اليامين بن تومي" أبعاد الذات فلسفيا ونفسيا وتاريخيا، ليستهدف الوعي عبرها نحو هواجس الإنسان وسعيه لإثبات نفسه في الوجود وتحيين ثقافته بالسمو اتجاه جوهر الكون. لذلك، جاء خطاب الذات بكفاءة إنجازية للبعد الثقافي للمبدع، أفرغت مضامينه اللغة في رواية "الزاوية المنسية".

فالذات الإلهية الرّاقية المتسامية والمتأصّلة في مخيال الذات الإنسانية الواعية التي تعيش صراعات في الوجود الحقيقي¹⁰ تسعى إلى المحافظة على نفسها والتجدّد بفعل تطوّرهما المستمرّ بممارستها التثقيفية الدينية خاصّة، فالدين وطقوسه (الصلاة، العبادة) هما العناصر الحيوية لتجدّد الروح "الذات".

فقيمة الشّخصية في الرواية "الطاهر بن معروف" كشخصية واعية تتميزّ بقدراتها على إسقاط كمال جوهر الذات الروحي والمعرفي على ذاته، ومنه التحكّم في إبراز قدراته على بقية الشّخصيات والوعي بالوجود الاجتماعي المتّصل والمنفصل في علاقات متشابكة.¹¹

فتقول الشَّخصية البطلة "الطاهر بن معروف": ((لقد عرّفتني على زوايا العالم الخمسة، هناك ربطتني علاقات بكلّ أبناء قريتي حيث كنت أجلس هناك لساعات طويلة، وليس معي إلّا قلبي الأسود وأوراق البيضاء الصَّغيرة، منها تعرّفت على الأحزاب السَّياسية، حيث كان المقهى المكان الوحيد للجدل السَّياسي، لم يكن في قريتنا شيوعيون فلربّما كنت الشَّيوعي الوحيد بالفطرة، بل لم أكن أفهم هذه الكلمة مطلقا حتى أطلقها علي أصحاب الأقمصة البيضاء، لتدخل قريتنا زمن الغموض، صار التكفير سيد المكان، وتوسعت دائرة الصِّراع السَّياسي التّن، لتكون تلك النافذة المكان الوحيد الذي يربطني بالعالم وأنا أسجّل ملاحظاتي)).¹²

فالدَّات الإنسانية هنا تعيش تشظّيا كبيرا بين تفاصيل التاريخ واستحضار الذّاكرة بأحداثها التي تمثّل الهوية والنشأة والبداية التي فطرت بها. كما تقارن ذلك بالحاضر وما تتعايشه مع ذوات أخرى في علاقات تواصلية وفكرية، فشخصية "الطاهر بن معروف" وذاته تكتب مذكراتها الشَّخصية وتسرد بأدب الاعتراف "فالدَّات هنا تفكر وتشكّ وتتحرّك في دينامية متوترة وتحيا بقلق معرفي بذاتية غير متوازنة، والدَّات الرّواية مفككة في مواقفها تعيش بين مدّ وجزر في الرّؤى: ((لم أكن أعلم أن الذين تصنع لهم حضنا من الرحمة على مدار سنوات يصنعون ذلك حضنا من الشّوك في أول خلاف، لم تكن خلافات... لم تكن تلك لعبتي أنا فقد احترفت الضّيع بين الأوراق، حين تتألّم فنحن نكتب ورقا ملطخا بالدماء والدموع، لا أعلم كيف قد تلك الحادثة، كان قلبه يتحرّك ضديّ بشكل غريب)). لم تكتف الدَّات السّاردة بإظهار ارتباطها الكبير بالدين والاختلاف الإيديولوجي بل راحت تصف ارتباطات الآخرين بها.

يتجسّد التفاعل الحاصل بين الدَّات الراوية والدَّوات المعيشة لها وحوارها مع مختلف التوجّهات الفكرية والطبقات الاجتماعية والإيديولوجية، يقول الرّايي على لسان "الطاهر بن معروف" ((قال لي كم حاولت أن أهزمك .

قلت: وما الذي منعك؟!

قال: لم أجد مدخل صدق ألج منه)).¹³

فالدَّات تعري نفسها أمام الدَّوات الأخرى تعريّا ثقافيا، أخلاقيا إيديولوجيا، حتى تتعايش مع غيرها بحثا عن مثيلاتها وتكشفا لنفسها في ظلّ الصّراعات الثقافية الرّاهنة، فتعمل على تشريح واقعها وكشف الصدام الفكري بغية خلق التوازن والتّواصل إنّه تشريح الدَّات لذاتيتها ومقاربتها لعناصر الحياة الجديدة، أي بين رهانات العولمة والتّقدم التكنولوجي مع إبراز المعالم الحضارية وكشف الهوية وإبرازها كمصدر الوجود والاستمرار، وفهم توجهاتها في الحياة.

فقد بحث الإنسان عن جوهر ذاته وسعى إلى معرفتها منذ الحضارات الإنسانية القديمة، كما أسهمت الفلسفة الوجودية على البحث عن الذات وماهيتها ووجودها الأول، فالسؤال عن الأنا هو البحث عن الوجود، "فالوجود" هو أولاً وجودي أنا، أنا الذات المتفردة¹⁴.

فالدافع الحقيقي لشخصية" الطاهر بن معروف" هو البحث عن الانتماء للوطن والبحث عن الحقيقة، حقيقة أن المثقف هو النواة الأولى للمجتمع تمخض من مبادئ الدين وتعاليمه السمحة، ونشأ في صرح القيم والتشبع بتراث الأجداد، ومع سعيه لإحيائها وتخليدها، لا ظواهر ثقافية، بل كهوية وثقافة راقية أمام الأمم والحضارات وممارسات ثقافية تبعث لتتبع، ثقافة أفعل لا ثقافة أقوال، وثقافة روحية وليست ثقافة جسد، هنا يحضر قول "ديكارت": ((ثبت عندي أن هذه الأنا، أعني نفسي التي بها أكون أنا ما أنا، تتميز عن جسيي تميزا تاما حقيقيا هي قادرة على أن تكون أو توجد بدونه)).

فالذات تركّز على وعيها "العقل"، فالوعي هو الذي يشكّل الذات كبراديعم جديد ومنطلق البحث عن الحقيقة والحقيقة المثالية، وفلسفة الإنسان وقراره في الكون.

((استلقت قائلا: زوجك هنا كيف؟

قالت: رماده فقط.. هي عادة قديمة.. ندفن موتانا وبعد مدة نحرق جثثهم.. نوزعها على أجمل المناطق التي مروا بها، تعجبت لتلك الفلسفة الغريبة.. رأيت الأمر سذاجة كبيرة، الميّت في ثقافتنا له حرمة.. لا يجوز حرقه أو المساس به فعرفت أننا تفوّقنا عليهم في هذه النقطة نحن تلك الحضارة البكائية العريضة، نتقن الاحتفال بما بعد الموت.. ثقافتهم دنيوية.. لا يتقنون غير الحياة.. حتى الموت مرتبط عندهم بالذاكرة الدنيوية.. ما أتعس الإنسان في كلتا الحضارتين)).¹⁵

إنه الصّراع الفكري والجدل الفلسفي حول وجود الذات وعلاقتها بالآخر، الآخر الحضارة والغرب والإيديولوجيا، وفلسفة الآخر حسب "جون بول سارتر" تكتسي الذات أهميتها شريطة وجود الآخر فهو القائل: ((فوجود الآخر شرط لوجودي وشرط لمعرفتي لنفسي، لذلك يصبح اكتشافا لدواخلي اكتشافا للآخر كالحريّة، إما لجانبي أو ضدي)).¹⁶ فالآخر مرآة الذات يلزمها ويؤسس لتكوينها وتحديد معالمها من خلال شخصية "ريما" السيدة الأرملة الباريسية المتفتحة أمام شخصية "الطاهر بن معروف" البدوية المحافظة على العادات والتقاليد والمثقفة، التي تسعى لاكتشاف الآخر واكتشاف ذاتيتها فيه كمقياس للمثاقفة وفهم التقاء الحضارتين، والثقافتين الشرقيّة والغربيّة.

الآخر معيار تريده الذات لتتعرف على نفسها وتستعمله لتعبر عن نفسها، فشخصية "الطاهر بن معروف" كإنسان لا يكون إنسانا خيرا أو حسودا، أو مثقفا أو ملحدا أو كاتباً، إلا إذا اعترف له الآخرون

بذلك. فالذات تمرّ من خلال الآخر لتعبّر عن وجودها. يقول الراوي على لسان "الطاهر بن معروف": ((صرت أحب نفسي أكثر.. أعشق جسدي.. فعشقي للحياة دفع في أسئلة جوهرية متى عرفت جسدي الذي كان محرّما على أن أَلعب معه...؟ ذلك الجسد الذي طوّقه الحرام على مر تاريخه.. ذلك الجسد الذي لم أُرّه ولم أكشفه...))¹⁷.

ويشكّل لها ملامحها وصورتها ويعطيها هويتها، الآخر الذي يشكّل الكينونة والانتماء وفق شكل أو نمط جديد، فالآخر وإن كان حتمية لمعرفة الذات، هو في نفس الوقت خطر عليها ويهددها بالزوال وموت إمكاناتها¹⁸، فالآخر يعدّ تهديداً لكيان الذات ووجودها الذي يدمرها ويقضي عليها بشقّ الطرق (الاستعمار/ الاستعمار)، المستعمر وسياسته المستدمرة للهوية، الآخر هو الجحيم وهنا يكمن الصّراع وتتسع بؤرته ثقافياً، يقول الراوي: ((إجابتها فلسفة كبيرة لكنها كانت منتهى الفلسفة حيث تضعنا الدنيا أمام خياراتها البائسة.. يرسم الزمان همومه على وجوهنا بقوة، يخلّد آثاره...))¹⁹.

شخصية "الطاهر بن معروف" كذات مثقفة لها كيانها وأبعادها الدينية أمام الآخر الذي يكشفها عمّا تكون، بل وكشف كينونتها، فالصّراع الثقافي هو الذي تتّخذة الذات الغربية/ الغربية للسيطرة، وفرض ثقافتها "العولمة" ومظاهرها. فكما تحاول الذات أن تسيطر على الغير وتتحرّر من قبضته، كذلك يحاول الآخر أن يفرض سيطرته وأن يتحرّر من قبضة ذات تقيده، صراع يحتدم كلّما تلاحقت الثقافة العربية التي اختزلها الرّوائي في شخصية "الطاهر بن معروف"، الطاهر بالطهر والشرف والتقاء والصّفاء الديني، الأصل العربي وسلالة الصّالحين ومركزية القيم الدينية المحمدية وغنى التراث وموسوعيته.

يقول: ((توجهت إلى المسجد لأصليّ الفجر وهناك سأجد من أسأله...)). والآخر التّيارات الغربية الوافدة ومحاولتها طمس الهوية العربية التي تموّه وراء الغزو الثقافي بجماليات الحضارة والتطوّر بمظاهر مادية وجزيئات تعدّ من أسباب أزمة المثقف الموهنة بين مدّ الموروث وأصالته وجزر الرّوافد الغربية المسيطرة تقول شخصية الطاهر ((اشتريت بدلة كلاسيكية إيطالية ووضعت عطرا فرنسيا ووضعت ربطة عنق.. ماذا لو وضعتها وعدت بها إلى قريتنا؟))²⁰.

إنّ الصّراع الحضاري بين حركة الشّد الفكري والجذب الإيديولوجي لا تنقطع. فهذه الرؤية تختزل في جهتين الأولى إيجابية فالآخر ضروري لوجود الذات وتقدمها، والثانية سلبية يكون فيها الآخر تهديداً للذات وعرقلة لحريتها، وبالتالي يفرض التّعاشي بهما، فلا يمكن للذات أن تتعاشي وتستقرّ وتنجح بمفردها ((عدنا إلى الأريكة.. تقطع شكوكي.. التصقت بي.. وكلّها شوق إلى رجل شرقي يخترن حرارة الدنيا.. استحيت منها لأنّها من بدأت تقدم لي فروض الولاء وقرباين الخطيئة...))²¹.

فالتَّسَقُّ الثقافي الذِّي يُوْطَّر الذَّات في خطاب إيديولوجي/ فَيَّ/ معرفي توجَّه فيه الذَّات خطابها لفئة اجتماعية معينة، تحاول تبرير حقِّها في السُّلطة، لإدارة علاقات الوطن والمجتمع وفق تصورات محدَّدة، هذا ما تحاول شخصية "الطَّاهر بن معروف" العربي وعلاقتها بشخصية "ريما الفرنسية"، وهنا يتبيَّن لنا المنظور الإيديولوجي الذِّي يستنبطه التَّسَقُّ الثقافي داخل المجتمع الشَّرقي/ الغربي، فالخطاب المدرس يحمل في طيَّاته مكنونات ثقافية، ناهيك عن البعد الفَيَّ والبعد الجمالي، فالبعد الفَيَّ هو نص الروائي المشحون بالشِّفرات الثقافية واللُّغة الرَّمزية، الَّتِي تحمل دلالات في قيمة أنسقية تتكشَّف في حوارات الشَّخصيات وأفعالها.

أمَّا البعد الجمالي هو التَّحقُّق القراءاتي المنجز من القارئ، فبنية النِّص/ الخطاب الروائي الذِّي قيد الدِّراسة "الزاوية المنسية" يتَّسم بالغموض فلا تتكشَّف أنساقها بسهولة، عمَّا يتطلَّب امتلاك القارئ لأدوات النقد الثقافي، وكفاءة معرفية خاصَّة ومعايشة التجارب الإبداعية لعدَّة نصوص روائية، بمختلف أشكالها وتجلياتها التعبيرية كون الرواية خطاب كثيف الدَّلالات، له من الحمولة الفكرية والفنيَّة والإيديولوجية الشَّيء الغزير، يتشعَّب فيه فعل القراءة والتحليل.

إنَّ الوعي الفلسفي لـ "الطَّاهر بن معروف" مصدره الفكر الديني، فكره لأبيه الذِّي ورثه مشيخة الزاوية رغم عدم معرفته ولقائه به، ما جعل أمَّه سيدة الرِّثا مرفوضة لدى أهل القرية، فكان الطَّاهر نتيجة بغى وضحية ظلم مجتمع وفساد أخلاقي، وذات ترفض ذاتيتها بحثا عن البدائل الفكرية والإيديولوجية، إنَّه البحث عن الهوية الحقَّة للذَّات. إنَّه نسق التعدُّد والتنوُّع، والاختلاف في خلق الله للنَّاس اختلاف الأفكار والمشارب، والأذواق والأهواء، وحكمته سبحانه اقتضت اختلاف البشر وتعدُّدهم في الكون إزاء سمّوه ووجدانيته.

تميّزت رؤية الإسلام للملل والشَّرائع الدينية غير الإسلامية بالاحترام والتقدير، فهو الذِّي قرَّر وحدة النَّفس البشرية، ودين الله واحد من آدم سيد البشر إلى محمد عليه الصلاة والسَّلام رسول واحد. ورسالة واحدة هي توحيد البشرية على وحدة العقيدة الإلهية، فسور الخطاب القرآني تؤكِّد أنَّ الرِّسالات السَّماوية كلّها، والأنبياء كلّهم يدعون إلى عقيدة واحدة لا اختلاف فيها، فالاختلاف يكون في العبادات والمعاملات، كون النِّص القرآني أكثر الكتب المقدَّسة شمولية، لأنَّه تضمن جميع الأديان السَّماوية، إنَّها قضية واحدة، قضية هوية وإيديولوجيا، قضية ذات تحاول التَّمرکز على حساب هوامش أخرى لتزوِّج لذاتيتها في الكون.

يقول الراوي بشخصية "الطاهر بن معروف": ((أنا ذلك البدوي المتصنع... وهو اجس الحياء تداعب مخيلتي، وعاد إلى الحياء من ذلك الزوج، الرماد الذي يراقبني.. كدت أصرخ بوجهه لأقول له.. أيها الخنزير ألا تغار.. ألا تنهض من رمادك لتعاركني.. أستسلم لها وأمرغ بعض حمقي البدوي..))²²، ويقول في موقع آخر: ((وجبي الذي كان بالأمس ذابلا بلا عنوان.. لقد جعلته القبلات الفرنسية يتورّد للحياة.. أردت أن أقطع كل الماضي العنيف.. أن أسخر من كل الدنيا.. أنا الذي يسبح ضد الشرق ليتقن فنون الصبح الأوروبي.. صار قوتي اليومي للحياة فقط))²³.

إنّما الذات تتجدّد في دينامية فلسفية بحثا عن مستقرّ تمارس فيه حرّيتها الفكرية، والروحية والجسدية، بل بحث عن قرارات ذاتها التي تتطلّب متطلّبات جديدة حسب زمنها لتواكب العصر وتواكب الحياة وتغيّراتها، التي تخدم المكان والزمان المتقلّبان حسب تقلّبات الذات البسيكولوجية، والمرفولوجية والإبستمولوجية.

يقول الراوي: ((قالت مشيرة بأصبعها..

أنت.. أنت

تغيرت كثيرا

جلست.. تحركت قليلا.. ابتسمت وتسمرت أنظر إليها.. لم أفهم شيئا.. أحسست أنني خارج الزمان..

خارج المكان..))²⁴.

فالذات تنمو وتتطور بحثا عن ذاتيتها وعن حاجاتها حسب راهن الثقافة، وما يتطلّبه المجتمع. فالذات تتساءل عن ماهيتها ومركزها في الكون ومدى تحقيقها وتحقيقها لطموحاتها ومآلها في الوجود، فالسؤال الفلسفي يشغلها دوما في قلق معرفي تحاول الإجابة عليها بممارستها ونشاطاتها.

قالت لها زهية: ((أليس دينك ودينهم واحد؟

حمامة: نعم.. الفرق بيننا هو الفهم))²⁵.

نستشف هنا أنّ الذات كبراديفم ثقافي، تسعى لإبراز هويتها الإيديولوجية وتداخلها مع الذوات الأخرى في حوار ثقافي، أساسه الفهم وطرد سوء الفهم، لتصل لتحقيق النص وكونولوجيته، فالراوي هنا أو المثقف يتزامن مع مراحل إبداعه لخطابه بذات لها خلفياتها الثقافية، ونبوغ الراوي كمثقف على دراية بالأحداث كراوي عليم له مقصدية فنية، فكرية، إيديولوجية تتحكم في مصير شخوص الرواية وتصادع أحداثها، وتطور صراعاتها التي تسعى لإنتاج وعي جديد، هو نقل الهم المعرفي للمثقف وصناعة قارئ

مثقّف، يؤسّس لإنتاج ذات واعية تقرأ وتنتج القراءة الثقافية لتحسين ثقافتها في دينامية، تتولّد الذات في سلاسل وعي وإنتاج وفهم وتشديد لذاتها.

إن الصّنع الفكري للذات الذي تمرّره عبر جهاز اللّغة الإبداعية هي محاولة ضرورية ومستحيلة في آن واحد، هي محاولة التعبير عن الأشياء بكليتها. فالذات التي تحملها شخصية "الطاهر بن معروف" تختزن شعور القلق أمام الأشياء وأمام الكلمات، بل قلق اللّغة ذاتها، واللّغة الفلسفية لـ "الطاهر بن معروف" الذي يعبر عن منطق عالمه، هو ما يجعله يعترف بأنّ العالم منطقي من خلال كتابته الصّحفية فيكتب نفسه قبل كلّ شيء، يكتب جنون ذاته وتشويش المجتمع الرافض له ولفكره، فراوغ وجهه الآخر من خلال الآخر، أو الغرب أو المرأة أو الوطن، فتشكّلت صورة الآخر فيه، من خلال العلاقة التي تقيمها اللّغة بالتواصل و طرح الرّؤى، وفي الآن ذاته مع العالم، ما أظهر معقولية ذاته ومنطقه في الحياة، ولا معقوليته في ممارسة حريته الفكرية والإيديولوجي، والتحرر من قيم أجداده و سلطة "قرية العين".

تجري مغامرات أفكار شخصية "الطاهر بن معروف" على الأرض في طرقات المخاطر، وفي بيوت الدّعارة، وفي مخابئ قطاع الطرق، وفي السجون، وفي ساحات الأسواق، وفي الجبال، والمجالس السريّة، وبيوت القرية العتيقة، الفكرة وفلسفتها لا تخشى أحياء الفقراء ولا الفاسدين. الإنسان صاحب الفكرة، أي الحكيم والمثقف يصدّم بالظهور الأقصى للشرّ الكوني، وللدناءة والحرام، فيختلّ توازن الذات لتقع في الصّراع الثقافي.

فحقيقة النّص الأدبي هو ألاّ توجد فيه حقيقة مطلقة في ذاتها ولا فكرة في ذاتها، فالكاتب أو الشّاعر يمكن أن تجرّه إيديولوجية أو عقيدة إلى خيانة هذه الحقيقة، ولكن الذات المبدعة لا يمكن أن تجعل أثره الأدبي مجرد عرض لفكرة معيّنة، بل تتجاوزه إلى تشرح البنية الفكرية لكلّ فكرة، وما توحيه من دلالات وما تتضمّنه من فلسفة، ففي الرواية الفكرة لا ينبغي أن توجد إلّا ممثلة أي إلّا إذا صارت موضوع تمثيل فنيّ.

بهذا المعنى كان الفيلسوف والروائي "دوستوفسكي" رسّاما كبيرا للفكرة، وكذلك لأن صورة الفكرة - عنده - لا تنفصل عن الإنسان الذي هو حامل لها، لكنّ تمثيل الفكرة المضمّنة في الصّورة لا يعني الخطأ منها في مستوى وجهة النظر الذاتية، بل الأمر عكس ذلك، باعتبار أنّ هذا التمثيل يقتضي السّمو بالفرد، وبالحقيقة التي تقمّصتها الشّخصية إلى المستوى اللاشخصي للفكرة، فتأخذ الذات مبدأ أنّ الشّخصيات التي تسكنها لا تفكك ولا تحلّل ذواتها بنفسها، وإنّما هي تسيل كليّا في فكرتها تلك، وهي تعبر عن اختياراتها الكاملة حتى في أقصر أحوالها وأقوالها²⁶.

هذا ما تسير به الرواية بشخصها من خلال الفكرة وبنيتها، فالفكرة تعبير حي عن ذات وفردية منعزلة، وهي في الوقت نفسه تعلو بالفرد إلى رؤيا فلسفية لا شخصية، ولا هوية إلى مستوى أرقى من ساكن وعابر للفرد، حيث لا يمكن أن تعيش إلاّ الفكرة، ذلك نحو عوالم خاصة بها، لأنّ الفكرة هي مركز الاختلاف والتميّز بين الذوات والعقول وليست مبدأ انتماء وهوية وحيدة وواحدة فقط.

إذن فلسفة الذات في الرواية لا تظهر من خلال أقوال الراوي "الطاهر بن معروف" ذاته، الذي قد يقع في كسر أفق البناء الروائي، ليحمل الخطاب الروائي بإيديولوجيته وقناعاته هو فقط. فهنا تتضح حقيقة الكاتب مثل بقية الحقائق، ككاتب وروائي ومثقف وإنسان له قضية أمة يطرحها. فحتى لو كان النصّ وفيّاً لفلسفته، متشبّها بقيمه الفنيّة هذا لا يعني أنّ الحقيقة تتوارى داخلها وأفراغت من المنطق، ودخلت في نظام عوالم العمل الروائي أي نظام تعدد الرؤى واختلافها، وبذلك تصبح مجرد تعدد آراء فكرية وتباين وجهات النظر.

فالخطاب الروائي "الزاوية المنسية" الذي أسّسته ذات فلسفية، أراد الراوي من خلالها حصر خطابه في دلالات دينية و أخلاقية عبّرت عنها الشخصيات الرئيسية والثانوية (السعيد بن معروف، ربما الفرنسية، نانة برنية، الأم خدوج، الأمير، الذباح) وذلك بحسب السيرة الذاتية لحياة الراوي المثقف والكاتب الصحفي الذي يعاني من أزمت راهن الثقافة، هذه السيرة التي تدلّ على سيرة ذاتية وجانب فكري لدى الكاتب والروائي "اليامين بن تومي" كمبدع ومثقف قدّم طروحات وانشغالات العقل الفلسفي وسط الثقافة الراهنة وما يشغل القارئ الباحث عن الحقيقة الموجودة في الأعمال الإبداعية وما تحاول تغييره في مسار الأدب والفكر.

فالذات القارئة تبحث عن منظومة القيم الراسخة في بناء المجتمع المتطابقة والمتفاعلة مع المنظومة الجمالية للعمل الروائي، التي تختلف في جوهرها عن منظومة القيم الفنيّة والجمالية للنصوص الإبداعية بحثا عن المنظومة الأخلاقية والدينية وذلك باختلاف المجتمع واختلاف المبادئ والأعراف والأجناس.

فالرواية قرأتها الذات، ذات الراوي بصوت مسموع هو الفلسفة، ولكلّ مفهوم فيها عبرت عنه الذات فلسفيا بطرح أفكارها عبر الذات والآخر/ الغرب/ الاستعمار/ المثقف الغربي/ المثقف العربي، فرسمت لنا الواقع وحتميته وغربته كوجود غريب يفرض هيمنته عليها ليزعزع قوّتها، إنّه هاجس المركز لأننا والهامش للغير، والدلالة الضمنية هنا هي المأساة التي تعانيها الذات ولعبة محررة يهدف الروائي من خلالها إلى تبين تعدد الأصوات والإيديولوجيات وتعدّد الألسن والثقافات، ليرفع من حدّة الصراعات

ولينسج لنا علاقات التّجاور و التنافر ما يكتّف من إشكاليات فلسفية تطرحها الدّوات وتبقى مفتوحة أمام القارئ.

فوظيفة الدّات فلسفيا هي النقد والبحث عن الجديد والنقد الدّاتي، وتتغذّى من أفكار الدّوات الأخرى فتسعى لتمحي ذاتيتها وصفاتها المعرفية والأيدولوجية والفنّية في قوالب تاريخية متنوعة، لتكون صورها الفكرية والإستيطقية رؤيا تخدم علاقات الاتفاق الفكري ورمزية لدوات ما، وقد جعلت ذات الرّأوي خطابها منهجا للفلسفة للحوار الثقافي وقيمة أخلاقية تقدّم أفعالا مثالية راقية للمثقف القارئ الفيلسوف الدّّي بنى مفاهيمه وفلسفته الخاصّة في القراءة المنفصلة والمتّصلة برؤى وإدراكات لبنتها الذات بصفتها بحثا حقيقيا عن الحقيقة الفلسفية، أحد الجوانب التي اهتمت بها والتي تداخلت فيها الفلسفة بالأدب والفكر.

إن الفلسفة ليست لاوعي الأدب، لأنّ الأطروحات النظرية وإشكالاتها تحلّل وتعالج الكتابات النّصية الرّوائية ذات المنحى الفلسفي وتحلّله فتقحمه في تدخل وتداخل الفكر بين الآخر والدّات الدّّي يعيد إليه هويته المفقودة أو المنسية. فالفكر الدّّي يصاحب جلّ الأعمال الرّوائية لا يردّ إلى وعي خارجي يكشف الأدب بواسطته أسرار، معترفا في الآن ذاته أنّ هذه الأسرار تمتلكه أكثر ممّا يمتلكها، بل إنّ هذا الفكر يتوافق فلسفيا مع التّفكير الدّّي يمارسه الأدب وإجراءاته على ذاته وهو ينتج نصوصه لتحقيق الكتابة معنى كامنا يتطلب إدراكها قراءة مثقفة فاحصة. ذلك أنّ هذه الكتابة وهي تشغل على اللّغة، كما على مادة تعدّ وتطور انطلاقا منها أشكالها الجمالية والفلسفية والمعرفية، لتكشف شروط الإمكان والحدود التي تحدّد نظام اللّغة بالذّات من أجل تحويله إلى نظرية واضحة المعالم جماليا وإيدولوجيا.

الشّكل الأدبي الرّوائي إذا، ليس ما تتضمّنه من مضمرات أو ما تخفيه من دلالات أخرى، ينبغي البحث عن فلسفة أدبية، هي الفلسفة التي ينتجها العمل الأدبي الرّوائي، وليست الفلسفة التي تنتجها الفلسفة. وبالتالي فإنّ هذه الفلسفة لا تستخرج من أية أجناس أدبية كجسم، ولون غريب يمكن ضمّه مجددا بواسطة نظام عبارات منفصلة باتّباع السّرد التاريخي، للوصول إلى عمق الأشياء تستكنه مركز كلّ شيء، يجب أن يزول ويتجدّد، هذا هو الأساس الذي لخصنا به الرّوح المشتركة للرّواية، التي أخضعت لقراءة فلسفية ليس لها أي قيمة، وأي معنى في ذاتها، بمعزل عن الآثار والنّصوص التي تؤدّي إلى ميزة من المنطق و المصادقية. وهنا ليس المضمون الفلسفي شيئا خارج الأشكال التي يتجلّى فيها، إنّها يتطابق مع هذه الأشكال التي تنعكس على بعضها، وتؤثّر في بعضها في الشّكل الفنّي والمضمون الفكري، التي تولدها اللّغة/ الخطاب بالتحام الرسالة بالوسيلة التي تكشفها القراءة التحاما تاما فكريا وفلسفيا. وبطريقة أدقّ،

إنّ الفلسفة الأدبية بما أنّها لا تنفصل عن أشكال الكتابة التي تنتجها، هي فلسفة من دون مفاهيم مجردة، إيصالها لا يعبر بتشديد أسس وأفكار تطبيقية يعجز البحث عن تطبيقها إجرائياً. إنّ النصّ الأدبي والروائي خاصّة هو مركز فكر وفلسفة، يعبر عن ذاته مع احتواء الأنواع الأدبية الأخرى خاصّة بشعريته السائدة.

لعلّ هدف الكتابة الأدبية إحداث التأثيرات الفكرية، ويفتح للفلسفة آفاقاً جديدة ومجالات بحث جديدة مستخلصة من باحثي ومختصي الفلسفة، إنّ استعادة الممارسات الفكرية لقدر لا بأس به من المجازية، واللّعب اللّغوي والحرية الفكرية، ما يزيد المعطى الفكري عمقا في خوض طرق غير معهودة. هنا يتّضح التأثير الفلسفي الحقيقي للنصّ/ الخطاب الأدبي الروائي الذي يفكك ويكسر كلّ المذاهب الفلسفية والفكرية، ويمرّر في ثناياه تعدّد الأصوات والأفكار المشتركة، والموزعة في الزمان والمكان والشّخصيات والأحداث، لتشكيل الشّكل الفنّي والفكري والسّردي أكثر ممّا ينتج من تنظيم استنتاجي محكم البناء.²⁷

إنّ إزالة ذات شخصية "الطاهر بن معروف" للحواجز الفكرية والإيديولوجية، وتأثيرها على الشّخصيات ببنّه وعيا جديدا، فيبدو النصّ/ الخطاب نسيجا نصّيا مضمرا ومكشوفاً بطرحه الفلسفي، إذا ما نظر إليه على ضوء الفلسفة، فلسفة الذات التي يسري فيها، كشبكة وحيدة تتجاوز المقصدية الخاصّة للمؤلف والشّخصية البطلة، حيث تظهر أهدافهم الأيديولوجية مستوعبة ومتحولة بعملية هذا البرنامج السّردي المحكم، فشخصية الراوي "الطاهر بن معروف" تكتب وتفكر أكثر ممّا تريد، ومما تبحث عن وجودها إذا لم تكن فلسفة الذات هي فلسفة من دون فيلسوف، لأنّ هذا المنحى الفلسفي هو منظور أدبي أولاً مرتبط ارتباطاً شخصياً بمبادرة كاتبه.

فلسفة الذات إذا، هي المشترك الذي يتقاسمه المؤلف مع الشخصية الورقية، التي صنعها أدبيا والتي تميزه من خلال العلاقة التّواصلية النّوعية، التي تقيمها مع الذي ينتقي لها الخطاب، خطابها بكلّ أنواعه السّياسي والتاريخ والاجتماعي والديني والإيديولوجي... بل هي فلسفية الذات التي تخترق معظم النّصوص الأدبية والروائية خاصّة، باعتبارها تؤسّس وحدات فنّية وفكرية، متباعدة وملتحمة في حين تقوم القراءة النقدية على دعوتها إلى الرّؤى المبتوثة في النصّ، يستنبطها المتلقي بتعددية متميزة من الأفكار المتناولة في سيرورة المواضيع لدى الشّخصيات، وبالتالي هي قراءة واعية بمعزل عن المؤلّفين وطقوسهم في الكتابة ورؤاهم المختلفة والمذاهب المتنوعة والطروحات المتشعبة المشارب، فالذات هي التي

تفكر وتقول إذ تحل في هياكلها الفلسفية وجودها من وجود كل الفلسفات الخاصة الناطقة بما هو فلسفي بالذات، ومن الذات وإلها.

تبين الذات بهذه الطريقة فلسفتها ووعيا بالواقع التاريخي والسياسي والإيديولوجي، فيستحيل فكها عن الحقيقة التاريخية، وهنا يكمن درسها الأساسي في الفلسفة، وإشكالاتها التي تتجاوز كل النصوص الأدبية بضميرها الفلسفي، تكريسا لعصر ما ولحقبة تاريخية ما، ولراهن العصر أو ما يفكر به هذا العصر عن نفسه يعود إلى الزوايا ليقول فيها. إذن هي رسالة النص، رسالة إيمان الشخصية بنفسها، بذاتها، ويبدو ذلك من خلال أفعالها، بل وتطرح الذات مخططا مستقبليا عن حدود الذاتية، وهذا المخطط غير منفصل عن عرضه بجميع أبعاده الفلسفية والمعرفية والفنية، فهو يتكشف من خلال أداء وحوار الشخصيات. فما هذا النصيب الفلسفي للخطاب؟

إنه يسمح برد وانفتاح كل الخطابات الفلسفية بشق الأشكال على عنصر التاريخ الذي يجعل منها أحداثا ومصادفات وظروف كثيفة، تعيشها الشخصية لتنتج لنا الأحداث المتعارضة وتغيرات على مستوى المخطط السردى، ما يبدو للقارئ خطة سردية محكمة لها مهدها ولها لحدها، فالجهد الفكري والفلسفي للراوي العليم منح تناسقا وانسجاما وتسلسلا للنص عند مروره بالبرنامج السردى، وبالتالي تتضح مفاعيل الحقيقة الناتجة عن حركة الأفكار، فكل شخصية تعرض وعيا بشكل تلميحات غير مكتملة وناقصة، ومتقطعة، وكأن منطقها الفلسفي المتناسق قد هجرها نهائيا، أو تطرح أفكارها بجزيئات وتخفي هويتها لظروف ومناسبات لاحقة.

إنه التعبير الفلسفي بأسلوب ذات، تمتلك فلسفتها وتكرس لها جماليا وتبرر أقوالها وأفعالها في الخطاب، حيث أنها تبشر في حواراتها بشيء يجب أن يحدث لاحقا من مبدأ استباق الأحداث، واستشراف المستقبل، ويقتضي فهم ذلك بفلسفة الذات، وكأن الذات تستثير ضميرها الفلسفي لعصر قادم، يمتد على طول مستقبل الشخصيات البطلة أبرزها "الطاهر بن معروف" التي تعيش الالام، آلام الماضي كإلزام ممزقة في استرجاع الذاكرة، والأوهام التي تستفز الحاضر وتغيراته، والأحلام طموحات المستقبل والأمل القادم من حياة أفضل، ما يجعل الشخصية تهضم واقعها كله وتحبى بصدى ساخر وأسلوب عبثي في إفلات الذات، تارة في المتخيل وتجريدها من كل ماديتها لتمارس وجودها كما تحلم به أن يكون، أي الانتقال من ما هو كائن إلى ما يمكن أن يكون، لتضع الأشياء والأحداث في مواقعها، بغية الوصول إلى ضوء قاتم ينبعث من الذات، متفاوت بين نظرة ليلية مسببة لليأس والرعب والظلم، وبقعة بيضاء وروحانية لأمل منتظر وكلتا الحالتين تجتمعان في بؤرة القلق المعرفي تلتقيان وتتعارضان في آن واحد، إنه رسم لحدود

فلسفية تمنح للنص كينونته لتتكلم في شكل خطابات لشخصيات، تمتلك وعيا يتجلى في قصص متحفظة مكتوبة معلقة على قالب فلسفي لكل شخصية، تعبّر عن بداية ونهاية تاريخها، فيقودان إلى إعادة قراءة الذات وفهمها أكثر.

نعرف أن الرواية هي بحث عن بيئة زمنية ومكانية ما، تقصّ تاريخا روائيا وصورة الراوي -البطل- الباحث عن ذاته صورة مألوفة، لكن الراوي الرّوائي الذي يفترض أنّه هو من كتب هذا البحث الفلسفي والفكري والإيديولوجي هو مغمور أكثر، ويبدو أنّه بقي في الظلّ منعزلا باستمرار، في الحقيقة إنّ كائن من كائنات الظلام والليالي، فهو لا يعيش في اتجاه نور الحقيقة أو نحو خلود الأفكار، بل هو عكس ذلك، وفي آخر فصول الرواية "الزاوية المنسية"، جعل برنامجها هو الغوص في الليل والمواجهة المستمرة مع الموت والانعزال والنسيان، الذي يستيقظ به مع كلّ يوم جديد، سهره وتفكيره في الكتابة في أركان الزاوية وبعده إلى زاوية نفسه والخلوّ به في الوقت الذي انتهت فيه الرواية إلى البحث عن حقيقة أبطالها، إنّ بحث الرّوائي، وهو في الحقيقة حكاية لا حكايات فيها ولا هموم، وهي حكاية قدرها أن تنتهي إلى لغة الصمت، وإلى الانطواء وإلى الهدوء. ورغم ذلك يحصل أحيانا أن يتحطّم الحكي البديهي الواضح، فتبرز من ذلك منطقة قائمة تظهر فيه لحظة، خلالها يحضر الراوي/ الرّوائي من ذلك أنّنا نلمح في بعض أقول الراوي "الطاهر بن معروف": ((.. لم كل جيراننا الطيبين... تراك في أي الجهات أنت أيتها الزاوية المنسية.. ها أنا قادم إليك أتسلم عرشك قادم لأتسلم عمامة الشيخ السعيد بن معروف، ها أنا قادم إليك احضيني بقوة لعلّي أظهر من كل العنف الذي سببه لي والدي.. افتحي ذراعيك..))²⁸

عالم العزلة وخلو الروح إلى ذاتها أظهر عالم البحث عن الذات، أي منها ظهرت البداية والنهاية (لعالم الذات) تجلّى لنا نحن القراء عند حديثه مرّات عديدة وسرده لتفاصيل حياته، وهو ما كان يكشف لنا زمنا آخر، زمن الكتابة، زمن الذاكرة، زمن العزلة، زمن لا ينتهي إلى النوع المألوف للزمنية، ولا مكانا وفضاء لمكانية عادية فهي الزاوية التي لا يقصدها أي مثقف، وأي إنسان كان، وزاوية منسية بطابعها الخاص بالنسيان والبركة، فهي محجوزة وبعيدة عن عقول وأعين الجميع، هي ملكية مقدّسة لفئة معينة لسلالة من طبقة اجتماعية، ولشخصية تحمل قدرات خاصّة، ميراث ينتظر ملاكه.

إذا كانت رواية "الزاوية المنسية" تقصّ كيف يصير القارئ رواية، فقد انتهت بهذه الأنساق المضمرة لتقصّ كيف يصير الإنسان المثقف فلسفة. وحتى نفهم أسباب التحوّل يجب أن نعرف أن الرواية ليست عملا فنيا فقط، وإنما هي أيضا بحث عن الحقيقة من هذا المنظور سنرى أنّه حول صورة المثقف يدور الأصل الأفلاطوني للفلسفة في ثنايا النص، مع تطور أحداث الذات وتقلباتها، ولكن سيكون هذا الالتقاء

لمعينة انقلاب عبثي لتاريخها كله. من الجدير بالملاحظة أنّ الروائي قد وضع بروز العزلة هذا، أو هذه الفجوة التي تظهر في الظلام، ضمن هذه الرواية التي هي رواية الضوء والانكشاف والحقيقة، ضمن هذا الخطاب الذي هو خطاب الثقافة والفلسفة والدين، وقد أثير هذا منذ العنوان، والحقيقة والوحدة، والألام تبرز في آخر الرواية.

إذ يقول الطاهر بن معروف: ((تراك في أي الجهات أنت أيتها الزاوية المنسية.. ها أنا قادم إليك احضيني بقوة لعلّي أظهر من كلّ العنف الذي سببه لي والدي..))²⁹، مع إشارات لوعي وتلميحات تعيدنا للبداية حول ذلك العالم المتفرد، وهذا ما يدلّ عليه ميله إلى العزلة وإلى شعيرة النصّ الثقافي. الواقع أنّ نهار الزاوية يبرز الأشياء والكائنات في ضوء مسرف القوة والأصوات في حين أنّ هدوء ليلها وأسرارها مع أهل القرية يقدّم لنا رؤية متغيرة للعالم، على هذا الأساس يعترف الراوي أنّه مثل الملحد لا ينتمي لشيء، ويؤمن بأشياء دون أخرى، لكن نقده الشديد كمثقف وفنان انطباعي لأمر ومواقف، هو الذي يشدّه إلى القيمة المعمارية الثقافية الموضوعية. إنّه يرى من جهته أنّه من التناقض الحقيقي ألا يأخذ بعين الاعتبار تبدّل الزاوية خلال غربته وسفره وزيادة وعيه وثقافته.

الوعي واختلاف القضايا، هي علاقة تقابل مع مجتمع جديد، وثقافة جديدة، وهذه الأخيرة ليست هي في الحقيقة سوى محاكاة لواقع حضاري، وهذا ما يدلّ عليه المشهد الأخير في الرواية بعودة البطل لمسقط رأسه، العودة للأصل فكانت أم الراوي "خدوج" تريه من خلال شخصيتها العنيفة انتماء وأصله الشريف، هذا ما يتذكّره البطل في كلّ لحظة حين عاد لقريته، ليتسلّم مشيخة زاوية أجداده الشرفاء، وهذا المشهد المرتعش والمقفر، والذي هو مجرد إشارة لمشهد ثقافي هو العودة إلى الهوية، تقلّبات إيديولوجية وعدم ثبات الرّؤى، فالراوي مثل الثقافة لا يبدأ في التّمعّن إلّا مع العزلة وبعد المسافة، وهو يؤكّد خلافاً لكلّ ما يعبر عنه الواقع من قيم اجتماعية واقتصادية وتاريخية، وسياسية، وإيديولوجية.

إنّ الوعي بالنصّ هو فهم لواقع الذات باختلاف أشكالها المجدية وغير المجدية، ذات المظهر الجميل، في حين أنّ حقيقتها وأهدافها تبقى دائماً خافية ومضمرة علينا، شأنها في ذلك شأن حقيقة الأساطير الغامضة. وحتى لا يواصل البطل العيش في الوهم، يجب على الروائي أن يغادر دائماً زمن الصّخب والعنف والحرب ويدخل زمن الهدوء والسّلم والسلام، والبحث عن الزمن المناسب، لا يمكن أن يتمّ في الامتداد الزمّني العادي للعالم الخارجي، ولكنّه يتمّ انطلاقاً من نوع من الزّمن الأصيل والأسطوري منه للنصّ، ولكنّه يتمّ انطلاقاً من المرحلة الثقافية والزّمنية للنصّ، ومنه تبرز الزّمنية السردية لا على هيئة متواصلة وخطية، وإنّما تكون بالأحرى على هيئة عاطفية لعالم الذات على نحو التحوّلات الثقافية

للعالم الذي يقلقه كالألباس الغربي (ربطة العنق والعطر الفرنسي والعربي، عمامة والده، وقندورة، أصحاب اللّحى البيضاء) وأجواء المدينة وحركيتها (باريس)، مظاهر القرية (القرى والبيوت وسكانها). إذن الوعي بتغيّرات العالم من حوله وحيويته، هو بحث فلسفي عن الحقيقة، ويفترض أن يستيقظ الباحث والمثقف من سباته الدوغمائي ويلتفت نحو ضوء الحقيقة، وأن يقيم هذه الحقيقة على يقين ذات باحثة حية، تستطيع أن تقول أنا ذات موجودة، ومنه فالروائي يستقرّ في أعماق ذاته المبدعة إلى حدّ أنّه ينتهي فيها إلى تضيق هويته الفردية والاجتماعية، بل وتضييع كلّ جانب مادي فيه وإفراغها في ذات البطلّة، لتخرج شخصية ذات مكثفة بالأفكار بحمولة إستمولوجية، وجمالية وإيديولوجية ولكن سبات الروائي لا يستيقظ، إنّّه يعيش في الزمن الأخير للوعي الثقافي، هذا الزّمن المميز والأسطوري الوحيد المميز، وفي الزاوية المكان المقدّس، هو ما كان ما قبل وما بعد الحياة، ومثل الشّيخ أو الإمام الذي ينتهي الرّأوي -الروائي- إلى عالمه بين ثنائية الحياة والموت. يجب الموت في العالم والتخلي عن الحياة الاجتماعية في انفصال عن الوحدة القصوى، تلك هي الإمكانية الوحيدة للفهم والتفوق الثقافي، وامتلاك "السّلطة الثقافية" والنّجاة من ظلم وفساد المجتمع، كون هذا الأخير هو موضع الخسارة، ولكن التخلي عنه لا يعني أنّ الذات ربحت ذاتها، بل العكس هو الصّحيح بمعنى أنّ ذلك التخلي يعني الدخول في تعرّ مطلق، يجعل من هذا المثقف الإنساني ليس فقط غريبا عن العالم وإنّما غريبا عن ذاته. يجب بعد ذلك التخلي عن التنقّل، وعن السفر لاكتساب وعي جديد، وهذا لا يعني أنّ الأرض أو مسقط الرأس ليس فيهما أي فائدة بالنّسبة إلى المثقف أو الكاتب أو العالم، وإنّما هو يعني أنّ اجتماعية الفضاء والانفتاح الثقافي تنزع منه كل هوية وشعرية ووعي.

6. خاتمة:

ما نخلص إليه في أنموذج الدّراسة أنّ الذات في الخطاب الروائي المعاصر لـ "الزاوية المنسية" تسعى لتكريس ممارساتها الجمالية من خلال اللّغة الفلسفية التي تجلّت في أسلوب ونزعة الكاتب النيتشويّة بتوظيفه لمسار المثقف العربي الباحث عن وجوده المثالي في ساحة العولمة والدّرس النقدي الأكاديمي الفكرية والإيديولوجية، وتنعكس على الذات القارئة التي تزداد وعيا باستنباط المفاهيم وبناء فهم جديد بالأعمال الأدبية الجزائرية المعاصرة.

- السّؤال الفلسفي دلالة على انفتاح الهمّ المعرفي للمنجز الرّوائي للمؤلف "اليامين بن تومي" يمنح الدّيناميّة في خطابه الرّوائي ما يوسّع من معماره الفنّي والدّرامي والإيديولوجي ويقدم سلطة ورؤيا معرفية للقارئ.
- تسعى رواية "الرّواية المنسية" للإجابة على تساؤلات الثّقافة ضمن خطاها كوعاء ثقافي، وإنتاج وعي جديد لدى المبدع والناقد العربي وفضح المسكوت عنه للذّات والذّات المثقّفة.
- الذّات الفيلسوفة هي النّواة الأولى للفكر منذ الفلسفات القديمة، وهي مصدر البحوث العلمية واشتغال العقل والإنسان بحثا عن هويّتهما، وتتطوّر مع الطّرح المعرفي لحاجات العقل المعاصر خاصّة وهذا ما اشتغل عليه "اليامين بن تومي" محاولا بعث العقل وحركية الثّقافة للنّشاط والتساؤل الدّائم.
- فلسفة الذّات في الوجود خاصّة في النّص/ الخطاب الرّوائي "الرّواية المنسية" محرّك العمل الأدبي، وبوتقة الفكر للشّخصيات ومرآة الرّوائي "اليامين بن تومي" وإيديولوجيته، وهمّة المعرفي.

7. قائمة المصادر والمراجع:

- ¹ القيسي عموري عبد الجبار، قياس مفهوم تقبل الذات لدى معوفي الحرب، رسالة ماجستير، قسم علم النفس، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، العراق، 1988، ص 12.
- ² كرم سمير، الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من علماء السوفيات، إشراف روزنتال و يودين، تر: كرم سمير، لبنان، 1987، ص 216-217.
- ³ حنفي حنفي حسين، الموسوعة الفلسفية العربية، مادة ذات، المجلد الأول. ر.ت. د.، 1986، ص 87.
- ⁴ زكي نجيب محمود، محاوره فيدون ضمن كتاب محاورات أفلاطون، تر: د. زكي نجيب محمود، مطبعة لجنة التّأليف والترجمة والنشر، مصر، 1966، ص 150-151.
- ⁵ أحمد قيس هادي، دراسات في الفلسفة الإنسانيّة والعلمية، مكتبة المنصور العلمية، العراق، 2000، ص 198.
- ⁶ المرجع نفسه، ص 244-259.
- ⁷ المرجع نفسه، ص 276.
- ⁸ إقبال محمد، ديوان جاويدة نامة - رسالة الخلود-، تر: د. محمد السعيد جمال الدين، مطابع سجل العرب، مصر، 1974، ص 16.
- ⁹ المرجع نفسه، ص 16.
- ¹⁰ عزام عبد الوهاب، محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره، (د س).
- ¹¹ المصري حسين مجيب، إقبال والقرآن ضمن كتاب محمد إقبال قصائد مختارة ودراسات، (د س).
- ¹² بن تومي اليامين، الرّواية المنسية، دار غراب للنشر، مصر، 2015.
- ¹³ المصدر نفسه، ص 78-79.
- ¹⁴ بدوي عبد الرّحمان، دراسات في الفلسفة الوجودية، النهضة المصرية، مصر، ص 19، 1966.
- ¹⁵ بن تومي اليامين، المصدر السابق، ص 84.
- ¹⁶ المصدر نفسه، ص 93.
- ¹⁷ بدوي عبد الرّحمان، المرجع السابق، ص 264.
- ¹⁸ بن تومي اليامين، المصدر السابق، ص 91.

¹⁹ المصدر نفسه، ص 99.

²⁰ المصدر نفسه، ص 95.

²¹ المصدر نفسه، ص 84.

²² المصدر نفسه، ص 84-85.

²³ المصدر نفسه، ص 85-86.

²⁴ المصدر نفسه، ص 96.

²⁵ المصدر نفسه، ص 116.

²⁶ ديمولي كارل، الأدب والفلسفة، بهجة المعرفة في الأدب، تر: قسومة الصادق، تونس، معهد تونس للترجمة، 2021، ص 201.

²⁷ ماشيري ييار، بم يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية، تر: جوزيف شريم، مراجعة بسام بركة، لبنان، (د س)، ص 345.

²⁸ بن تومي اليامين، المصدر السابق، ص 159.

²⁹ المصدر نفسه، ص 159.